تجليات فن البديع في خطب الامام الحسين عليه السلام

المدرس الدكتور
أنوار جاسم عويد
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف
122anwarrr@gmail.com

المقدمة:

إن السطور التي تخطّها الأقلام عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لهو شرف كبير، فكيف لا، وهم سادة الناس وبلغائها بعد نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله، لذا لا يمكن أن نُنكر ما يُكابدُنا اثناء محاولة أقلامنا المتواضعة للكتابة عن شخصية كشخصية الامام الحسين عليه السلام، الذي يُعّد الامام المبُين كما قيل فهو بحق قد أبان أهل الحق من أهل الباطل وثورته الخالدة التي أصبحت نبراساً يُستضاء به في طريق الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق فهو مُلهِم الثوار وهو الصرخة المدَوية بخُطبِه وكلماته وأقواله التي هزّت عروش الظالمين، لذا فقد إخترت الكتابة في فلسفة بُنية كلامه وأسلوبه في توظيف فن البديع في خُطبه، سيما وان فن البديع كما قال الجاحظ "مقصْور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان"، فاستوى البحث بعنوان ((تجليات فن البديع في خطب الامام الحسين عليه السلام)) فخرجت الدراسة بالعنوان أعلاه، مع المقدمة وتمهيد تناول تعريف فن البديع لغةً، وإصطلاحاً، مع ذكر أنواع ذلك الفن، ثم المبحث الأول الذي استوى فيه البديع التكراري الذي خُصِّصَ للحديث عن أسلوب السجع والجناس والتكرار، ثم المبحث الثاني الذي تناول البديع التقابلي، وقد إنضّم تحت هذا العنوان عدّة فنون إمتزجت كلها لأداء وظيفة واحدة، من هذه الفنون، المقابلة والطباق، والعكس، أما المبحث الثالث الذي خصّصته للبديع التداولي ويدور حول توظيف أسلوب الاقتباس والتضمين والتقسيم.

ثم انتهى البحث إلى جملة من النتائج المحدّدة والملخصة، ولا بدّ من ذكر عُدّة الدراسة من المصادر المختلفة قديمها وحديثها التي أفاد منها البحث.

وهنا أود الإشارة الى إن ما اعتمدتُ عليه من تقسيم لفنون البديع من (بديع تكراري،

وتقابلي، وتداولي) قد إستعرته من الدراسة الموسومة بـ(أساليب البديع في نهج البلاغة دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية، خالد كاظم حميد الحميداوي)، كذلك على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت خطب الامام الحسين عليه السلام إلا أنّ هذه الدراسة هي طرحٌ جديد لم تتناوله دراسات سابقة، وهذه الدراسة هي حَوم حول طبقة الابداع الحسيني عليه السلام.

التمهيد:

حتى يقف القارئ على معالم فن البديع ويدرك كنهه لا بدّ من ذكر تعريفاً لذلك الفن على الرغم من كثرة الكُتب المؤلفة في هذا الموضوع لكن طبيعة الدراسة تتطلب ذلك.

تعريف البديع لغةً واصطلاحاً:

البديع لغةً: بَدَعَ الشيءَ يَبدعَهُ بَدْعاً، وابتدعَهُ أنشأهُ، وبَدأهُ، والبديعُ والبَدْعُ: الشيء الذي يكون أولاً والبديع المُحْدَث العجيبُ، والبديع المُبْدَع وأبدعتُ الشيء اخترعته لا على مثال[١].

اصطلاحاً: في أبسط تعريف لهُ هو "علم يُعرف بهِ الوجوه والمزايا التي تُزيد الكلام حُسناً وطلاوة وتكسوه بهاءً ورونقاً، مع مطابقتهِ لمقتضى الحال"[٢].

وواضع هذا الفن هو عبد الله بن المعتز العباسي[٣]، المتوفى سنة ٢٧٤هـ، ويُقسّم هذا الفن الى قسمين لفظي يتجلى في سطح النص راجع الى تحسين اللفظ، ومعنوي يُشرك المتلقي في إنتاج المعنى، وهو راجع الى تحسين المعنى[٤].

المبحث الأول

البديع التكراري

إن هذا النوع من الفن كفيل بمد النص النثري بمُدد زمنية متساوية أو شُبه متساوية، الأمر الذي يسهم بتوليد معاني إيحائية ونفسية ربما أُشرِك بتأثيره جمهور المتكلمين باللغة بطائفة كبيرة من إيحاءاتهِ وما يرتبط بهِ من ظلال المعاني[٥]. وقد عمد الإمام الحسين عليه السلام على توظيف هذا النوع في خطبهِ الأمر الذي زاد نصوصهُ تأثيراً في السامعين فوق صدقها الموضوعي والديني الذي إنمازت بهِ، ومن تلك التوظيفات قوله عليه السلام: "الحَمْدُ للهِ الَّذي خَلَقَ

الدُّنيَا فَجعَلَهَا دَارَ فَناءٍ وَزَوال، مُتَفَرِّقَةً بِأهلِهَا حَالاً بَعدَ حَال، فَالمَغْرُورَ مَنْ غَرَّتْهُ، والشَقِيَّ مَنْ فَتَنَتْهُ، فلا تَغُرَنَّكُم هَذِهِ الدُّنيا فإنَّهَا تَقْطَعُ رَجاءَ مَن رَكَنَ إليهَا، وَتُخَيَّبَ طَمَعَ مَن طَمَعَ فيهَا، وأراكُم قَدْ إجْتَمَعتُم عَلى أمرٍ قَدْ أسخَطتُم اللهَ فيهِ عَلَيكُم، فأعرَضَ بِوَجهِهِ الكَرِيمَ عَنْكُم، وأحَلَّ بِكُم نَقمَتَهُ، وَجَنَّبَكُم رَحمَتَهُ، فَنِعمَ الرَّبُ رَبُّنَا، وَبِئسَ العَبِيد أنتُم..."(٦).

إن خطبة الامام الحسين عليه السلام زاخرة بِفَنِ السجع، السجع: يُعرّف بأنه تواطؤ الفواصل في النثر والشعر على حرف واحد، والأصل فيه الاعتدال في مقاطع الكلام(٧)، وفي الأغلب جاء عفوّ الخاطر دون تكلّف وهو تابعاً للمعنى بدليل خلو بعض الفقراتِ منهُ حينما لا يكون لوجودهِ دور، فعبارة الحَمْدُ للهِ: الَّذي خَلَقَ الدُّنيَا افتتاحية

الفقرة	عدد الكلمات	نَبر الفاصلة
فَجعَلَهَا دَارَ فَناءٍ وَزَوالٍ	٤	**زَ / وال**
مُتَفَرِّقَةً بِأهلِهَا حَالاً بَعدَ حَالٍ	٥	**- / حال**

نلحظ أنّ الإيقاع السجعي في النص أعلاه يكمن في الألفاظ (زوال، حال) وهو مختلف من حيث الوزن، فالأولى متكونة من مقطعين، والثانية من مقطع واحد، وهو ما يُسمّى بالسجع المطرّف،(٨) فضلاً عن أنّ المقطع أعلاه لا يحوي على نظام إيقاعي صارم من حيث الفقار إذ يتراوح عددها بين (٤ - ٥)، أما من حيث الروي فهو متشابه بينهما إذ ينتهي بـ / ل / ، لكن يوجد إختلاف بكسر النمط في لفظة (زَ/ وال/) فهي مختلفة عن (/حال/) وهذا التباين ما تستدعيه الحالة النفسية كما موضح بالنص، وقوله:

الفقرة	عدد الكلمات	نبر الفاصلة
فَالمَغْرُورَ مَنْ غَرَّتْهُ	٣	غـ رْ / رَته
والشَقِيَّ مَنْ فَتَنَتْهُ	٣	فتـ / نَتـه

نلحظ أنّ أدبية النص قائمة على التشابه فالفقرة الأولى متكونة من ثلاث كلمات، والثانية كذلك أما من حيث النَبر فتنتهي بنَبر متساوٍ.

فالمغرور ⟷ الشقي

من ⟷ من

غرّتهُ ⟷ فتنتهُ

وهذا التقابل الحاصل بين الالفاظ المتشابهة في الفاصلة فقط والمختلفة في بعض الالفاظ من حيث الوزن والتقفية (المغرور - الشقي) يُسمى بالسجع المتوازي.

وهذا يعطي الإيقاع نوعاً من كسر النمط الذي كان سائداً، أما هذا التشابه فهو نابع من وحدة الموضوع في النص إذ أنّ حال المغرور والشقي في هذه الدنيا تنتهي الى مصير واحد فهما وجهان لعملة واحدة وهنا يمكن القول بأن الألفاظ جاءت تابعة للمعنى وهذا ما زاد النص حُسناً وبهاءً. أما قوله عليه السلام:

"فَلا تَغُرَّنَّكُم هَذِهِ الدُّنيا" فعلى الرغم مما فيها من إلتفات، إلا أنّها تابعة للجملة النواة ومؤسسة لتجديد التحذير من متاع الدنيا الزائل لكن بسياق جديد كون الإلتفات يتمتع بخاصية تعبيرية تتميز بطاقتها الإيحائية من حيث اعتماده على إسلوب العدول من إسلوب في الكلام الى إسلوب مخالف للأول[٩] لأنّ السامع ربما يَملُّ من إسلوب فينقله الى إسلوب آخر تنشيطاً له في الإستماع وإستمالة له في الإصغاء.

قوله عليه السلام:

الفقرة	عدد الكلمات	نبر الفاصلة
تَقْطَعُ رَجاءَ مَن رَكَنَ إليهَا	٥	إ / ليـ / هـا
وَتُخَيَّبَ طَمَعَ مَن طَمَعَ فِيهَا	٥	فيـ / هـا

فبعد إعتماد الإمام الحسين عليه السلام على الجملة الاسمية في النص السابق في قوله " فَالمَغْرُورَ مَنْ غَرَّتْهُ" و"الشَقِيَّ مَنْ فَتَنَتْهُ" نلحظ تحولاً في بُنية الجملة إذ يستخدم الجملة الفعلية في قوله (تُقطّع، تُخيّب) وكأن التحول هنا نابعاً من الرغبة في التخلص من الرتابة التي قد تعتري المتلقي، وتولد نوع من الإيقاع غير المتوقع على الرغم من وحدة الموضوع وهذا يُعّد من

المثيرات الاسلوبية، كما أن كلمات الفقرتين تتساوى في العدد ويتشابه رويهما ولكن الاختلاف يكمن في كسر النمط، فالأولى متكونة من ثلاثة مقاطع (إ / ليـ / هـا) والثانية من مقطعين (فيـ / هـا) ثم يتجدد الالتفات في النص، كما يسير الحديث نحو الناس ونُصحهم بقوله:

(أراكُم قَدْ إجْتَمَعتُم...) وهي افتتاحية.

الفقرة	عدد الكلمات	نبر الفاصلة
قَدْ أسخَطتُم اللهَ فيهِ عَلَيكُم	٥	عليـ / كـم
فأعرَضَ بِوَجهِهِ الكَرِيمَ عَنْكُم	٤	عنـ / كـم
وأحَلَّ بِكُم نَقمَتَهُ	٣	نقـ / متـه
وَجَنَّبَكُم رَحمَتَهُ	٢	رحـ / متـه
فَنِعمَ الرَّبَ رَبُّنا	٣	رَبْـ/ بُنـا
وَبِئسَ العَبِيدِ أنتم	٣	أنْـ / تُـم

نلحظ هنا تنوعاً سجعياً واضحاً نابعاً من تبدلات المعنى وتَقلُّب قلوب الناس فبقدر ما خذلوا الإمام الحسين عليه السلام ترتّب على ذلك خسرانهم لوجه الله الكريم، فنلحظ في الفقرتين الأولى والثانية عدد الكلمات (٥ - ٤) أما الفقرتين الثالثة والرابعة تتنوع (٣، ٢)، أما الفقرتين الخامسة والسادسة فنجد عدد الكلمات متساوٍ (٣، ٣)، أما من حيث عدد المقاطع فهو متساوٍ بين الفقار.

أما حرف الروي فكل فقرتين على الترتيب يتساوى رويهما عدا الخامسة والسادسة فنلحظ وجود إختلاف في الوزن والروي (ربنا، أنتم) وهذا يما يستدعيه المعنى وهنا يكمن جمال وحسن السجع حينما يكون اللفظ تابعاً للمعنى فالأمر يُفصح عن عدم وجود لفظ مُعّبر عن المعنى الثاني (أنتم) وبالوقت نفسهِ يكون مساوٍ (ربنا) لذا تخلّى عن السجع لتؤدي الألفاظ معانيها حسب ما يقتضيه الحال، وكأن الأمر وصل الى ذروتهِ فلا بُدَّ من مخاطبة

العقل والوجدان بأسلوب يثير الانتباه بشكل أكبر، لذا عمد الإمام الحسين عليه السلام الى توظيف التقابل من أجل تنبيه المخاطب وإثارته فجاء التقابل بيّن.

نعم	x	بئس	(أفعال المدح والذم)
الرب	x	العبيد	(فاعلا نعم وبئس)
رَبُنا	x	أنتم	(المخصوص بالمدح والذم)

وخلاصة القول أن إسلوب السَجع قد هيمن بشكل فعّال لكن قلة عدد وريقات البحث المسموح بها لا تسمح بذكر نماذج أخرى. أما في قوله عليه السلام:

"أُثْني عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالى أَحسَنُ الثَنَاء، وأَحْمَدُهُ عَلَى السَرّاءِ والضَرّاءِ،..."[١٠].

أما الفن الذي يُسيطر على هذا النص هو فن الجناس وهو تشابه اللفظين في النطق والاختلاف في المعنى [١١] الذي يكمن في قوله (أثني، الثناء) (السراء، الضراء)، والأول هو من نوع الجناس الاشتقاقي كونهما يعودان الى مصدر واحد وهو (الثناء)، والثاني هو جناس المضارع فنلحظ تشابه اللفظين في الحروف عدا الحرف الأول (س، ض) فقد اختلفا فضلاً عن تقارب مخارج الحرفين، ولكن لو تحدثنا عن دلالة كل لفظ فهي تعاكس أحدهما الأخرى فالسرّاء هي الحالة التي تَسرُّ وما يترتب على ذلك من يُسرٍ للمرء وزيادة بالأموال والأولاد، أما الضراء فهي عكس ذلك وهي الحالة التي تضُرُّ وتعني النقص في الأموال والأنفس. [١٢] وجاء إسلوب الجناس هنا بشكل انسيابي دون تكلف وكأن المعنى استدعى تلك المجانسة بين الألفاظ لتُعطي دلالات أقوى إذ أنّ المعنى يزداد وضوحاً حين يُذكر معهُ ضدّهُ، وهذا ما أشار إليه الجرجاني بقوله: "وعلى الجملة فانك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبهُ واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجدهُ ولا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقهُ بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم الى إجتلابه"[١٣]، وقوله عليه السلام:

"وَاللهِ لا أُعطِيهم بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ، وَلا أُقِرُّ قَرَارَ العَبيد.."[١٤]

والجناس واضح في قوله (أعطيهم، إعطاء)، و(أُقِرُّ، قَرَارَ) وهو من نوع الجناس الاشتقاقي أيضاً وقد أدى هذا الأسلوب الى زيادة التعبير عن شخصية الامام الحسين عليه السلام

التي تأبى الاستسلام والخضوع، كما ان ربط (قرار) بـ(العبيد) كان لهُ مسوّغ يتعدى التوازن الايقاعي في العبارتين فلفظة (العبيد) هنا ليس المقصود به ما ضدّهُ (الاحرار) لأن الصورة تكون بسيطة ليس فيها جديد لأن قرار العبيد شيء مُسلَّم بهِ، وان الصورة في هذا المعنى قد تبتعد الى حد ما عن الصورة الأولى وقد يكون المقصود بالعبيد هنا (عبيد شهوات النفس) الخارجة عن سيطرة العقل (النفس المتمردة)، فعبيد تلك الشهوات والرغبات لا يأبه بحقٍ أو باطل بقدر ما تسعى الى إشباع الرغبات[١٥].

وقوله عليه السلام:

"... ألا وإنَّ الدَّعِي إبنَ الدَّعِي قد رَكَزَ بَين إثنَتَين، بين السِلَّة والذِّلَّة، وَهَيهَاتْ مِنَّا الذِّلَّة"[١٦].

وهنا يتجلى فن التكرار [١٧] في قولهِ (الدَّعِي) وهو تكرار مقصود له دواعيهِ فهو يُعبّر عن موقف الامام الحسين عليه السلام من هؤلاء الناس، والتكرار الثاني (الذِّلَّة) يكشف لنا نوايا الدعّي ومراميه من البيعة، الا أنّ الامام الحسين عليه السلام والمتلقي يدركان ان القول بالذلة أمر مخالف للقرآن الكريم وهذا ما أكدّه الله عزّ وجل في كتابهِ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٨]، فالذلة الحقيقية لم تحصل فلو تمت المبايعة للحكم الأموي لكان في الأمر إذلال لكن شيء من ذلك لم يحصُل.

في نهاية مطاف هذا المبحث يمكن القول أن إسلوب السجع والجناس والتكرار قد ورد عفو الخاطر في أغلب النَصوص، وكان مما يستدعيه المعنى في أغلب الأحيان الأمر الذي رفد النص بدفقاً إيحائياً عالياً وموسيقياً واضحاً، مما زاد من جمالية النصوص، بدليل إنّ أكثر المرات التي لا تستوجب فيها تلك الأساليب قد تخلّى الامام الحسين عليه السلام عنها وعَزَفَ الى أساليب أخرى.

المبحث الثاني

البديع التقابلي

لا يُخفى على كل دارسي البلاغة العربية ما هيّ التقسيمات التي قسّمها البلاغيون فيما يَخُصُّ أنواع البديع وفنونهُ وفصّلوا بينها على الرغم مما بينها من قواسم مشتركة، ومنها

الطباق والمقابلة العكس ، وستُحيل آلية البحث الى دراسة هذه الأنواع تحت عنوان (البديع التقابلي) نتيجة لتشابه هذه الفنون في أداء الوظيفة داخل الخطاب الحسيني، ومن خطبه التي جاءت غنية بهذا الفن قوله عليه السلام:

"... ألا وإنَّ هَؤُلاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَيطَان وتَرَكُوا طَاعَةَ الرَحمَٰن...[١٩]".

إنّ المتلقي على دراية عالية بأن الامام الحسين عليه السلام هو وارث النبي محمد صلى الله عليه وآله وهو حامل مشعل الرسالة، فالمسؤولية التي تقع على عاتقه هي مسؤولية كبيرة تجاه الرعية، فحين يُريد أن يُصور لهم أسباب ثورته على بني أمية يُحاول توظيف إسلوب فيه قوة قرع ليُثير الانتباه لذا فهو يوظف إسلوب المُقابلة[٢٠] بين الأفكار المطروحة، كي يُهيء المتلقي نفسياً ويُقدّم له الصورة الكلية لذا فقد قابل بيت (لزموا، تركوا) و(طاعة الشيطان، طاعة الرحمن).

وهذا قائم على التقابل الشديد الذي منح النص بُعداً تصويرياً ناتجاً عن التقابل الحاد بين الأفعال وما يدُّل عليه هذا التقابل من دلالة إنما يُشير الى بساطة عقول الناس حيث الالتزام الصارم الذي لا تراجع فيه لطاعة الشيطان، والترك الميسور لطاعة الرحمن.

كذلك يتضح في خطبه نوع من التقابل غير الحاد[٢١]، قوله عليه السلام: "والله إنِّي لأشُوقُ إلى جَدِّي وَأبِي وأُمِي وَاَخِي وَأسلافِي مِنْ يَعْقُوب الى يُوسُف وَاَخِيه، وَلِي مَصرَعٌ أنَا لاقِيه"[٢٢].

وهنا عمد الإمام الحسين عليه السلام الى إحداث خرقاً إبداعياً يتجلى من خلال إبتداعه لأسلوب المفاضلة تحقق ذلك من خلال العبارة (أشوق من) فهو لا يكتفي بتقابل الأشياء فقط، إذ أنّ الحالة الشعورية تستدعي تلك المفاضلة ليكشف حال الاشتياق التي يعيشها وقد فاق بذلك إشتياق يعقوب الى يوسف وأخيه (d).

وهذا يكشف للمتلقي أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يعد موجوداً في هذه الدنيا إلا بجسده، وإنّ تلهفه للشهادة طار بوجدانه وفكره الى حيث يريد الله سبحانه وتعالى مكانه في النعيم.[٢٣] وقوله عليه السلام:

"..، فَإنْ تُعطُونِي مَا أطْمَئِنُ إليه مِنْ عُهُدِكُم وَمَوَاثِيقِكُم أُقَدمُ مصرَكُم وَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَكُنْتُمُ لِمَقْدَمِي كَارِهِين إنْصَرَفتُ عَنْكُمُ إلى المَكانِ الّذي أَقْبَلتُ مِنْهُ إلَيكُم"[٢٤].

بعد أن وصلت الى الإمام الحسين عليه السلام كُتبٌ ومواثيق شتى تؤيدهُ وتُناصرهُ أرسلها أهل الكوفة له، تُبّين مدى رغبتهم به، إلا أنّ ما يُسجلّه التاريخ لهؤلاء من سوابق يجعل الإمام عليه السلام متردداً في الوثوق بهم، لذا يُحاول أن يُخاطب عقولهم وأن يُلقي عليهم الحُجّة فيتحول الخطاب الى "حديث فكري يُخاطب العقول في وضوح وواقعية ورغبة في الاقناع".[٢٥] من خلال إستحضار موقفين قائمين على التقابل العكسي وهما: (أقدم مصركم، إنصرفت عنكم).

ولا شكّ في أن الأول يتحقق في حال إعطاء المواثيق والعهود والموقف الثاني على عكس ذلك وما هذا إلا دليل واضح على التردد النابع من أعماق الإمام عليه السلام تجاه صدق هؤلاء، ويمكن تبيان ذلك من خلال المخطط الآتي:

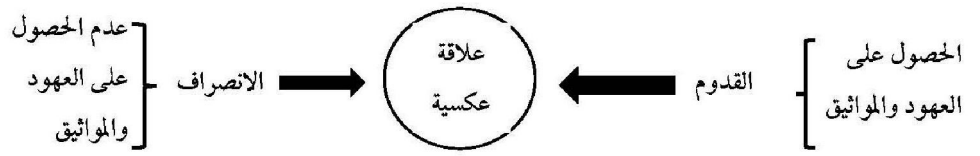

ومن ذلك قوله عليه السلام:

"... أجَلْ وَاللهِ، غَدْرٌ فِيكُمُ قَدِيمٌ، وَشَجَتْ عَلَيهِ أُصُولُكُمُ، وَتَآزَرَتْ عَلَيهِ فُرُوعُكُمُ..."[٢٦].

منح التعاكسُ الحاصلُ بين اللفظين (أصولكم، فروعكم) النصَ دفقاً دلالياً واضحاً، فهذا ما ساعد على نقل دقائق الأمور التي تُعبّر عن إحساس الامام عليه السلام ومشاعره تجاههم، فضلاً عمّا يمنحه الفعل (وشج) من دلالات توحي بشدة التلاحم والتشابك في الفروع والأصول لهؤلاء القوم، فقد منح الفعل (وشج) دلالة إيحائية سرحت بذهن المتلقي الى صورة تلك الجذور المتشابكة وتقاسيم الحياة البشرية في جزأين: الشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، فكما للخير عراقة وأصالة تمتد في جذورها للفطرة والعقل والضمير والقلب، كذلك للشر عراقة وأصالة تمتد بجذورها الى الهوى، وهذا الغدر والخُبث فيهم أصيل ورثه الأبناء عن الآباء فاشتبكت عليه أصولهم وتآزرت عليه فروعهم فهم أخبث ثمر للشجرة الخبيثة[٢٧].

وهنا يمكن القول أن فنّ الطباق والمقابلة وأسلوب العكس قد وظفهما الإمام

الحسين عليه السلام أجمل توظيف، واستغل ما فيهما من طاقات جمالية وإيحائية من أجل زيادة تنبيه المخاطب الذي كان في أغلب المرات عالماً وناكراً للحقائق.

المبحث الثالث

البديع التداولي

لقد أجمع الكثير من الباحثين على أن البلاغة هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداولية.[٢٨] إذ أنّ علم المعاني الذي هو أحد فروع البلاغة يكون أكثر إرتباطاً بالمقام لوضوح المعاني التي يسبغها المقام على الكلام، يليه بذلك علم البيان إذ عدّهُ البعض بأنّه مقام المتكلم،[٢٩] إذ لا يمكن التعبير عن العواطف والأفكار إلا من خلاله، أما علم البديع فقد عُدَّ مقام تحسين الكلام وتزيينه، ففنونه ذات معنى في مقام معين، وتصبح زخرفاً مضافاً في مقام ثانٍ، فكلتا الحالتين يمكن استخدامهما في مقام تحسين الكلام، لذا فالبديع البليغ يتضمن بالضرورة الإيقاع التشابهي بوصفه نوع خاص ألا وهو البديع التداولي الذي يركز على فعالية المتلقي في انتاج المعاني الايحائية المتضمنة في شكل هذا البديع[٣٠]. لذا سيُركز البحث هنا على فنّي الاقتباس والتقسيم، وقد وظف الامام الحسين عليه السلام كل تلك الفنون في خطبه بشكل ملحوظ سواء أكان عن قصد أو دون قصد الأمر الذي ساهم في إرتقاء نتاجه الادبي وقد رفد خطبه بكثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ومن ذلك قوله عليه السلام:

"وإنْ لَمْ تَقْبَلُوا مِنِّيَ العُذْرَ وَلَمْ تُعْطُوا النصفَ مِنْ أَنْفُسِكُم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣١]"[٣٢].

إنّ ما يقوم به إسلوب الاقتباس[٣٣] من عمل فني بعد مزجه مع النص الجديد وانصهارهما داخل قالب واحد هو توليد لدلالات جديدة يمكن لعقل المتلقي أن يَستَمِدّها من ذلك الموروث، وقد وظّف الامام الحسين عليه السلام هذا النص القرآني في خطبته دون أن يشير الى النص المقتبس بكلمة (قوله تعالى)، وهذا الامر يتعلق بمقتضى الحال والموقف الذي يمرُّ به الامام عليه السلام ولا تخفى أهمية ذلك الاستدلال العقلي من حيث تصوير المعطيات وترسيخها في ذهن المتلقي، سيما وأن القرآن الكريم عنصر راسخ في أذهان الناس ولا يخفى ماله من

أُسس دينية وعقائدية، فالصورة القرآنية تحمل الكثير من الأدلة لإثبات العقيدة وترسيخها في النفوس(٣٤).

أحياناً يعمد الامام الحسين الى توظيف النصوص القرآنية في خطبهِ دون ان يذكرها مباشرةً وهو ما يُسمى بالاقتباس غير التام، مثال ذلك ما جاء في خطبتهِ عليه السلام: "وَما أُولَهَني إلى أسْلافِي إشْتِياقَ يَعْقُوب الى يُوسُفَ"(٣٥).

إن السياق الذي ترد فيه الخطبة أعلاه هو في إطار الحديث عن الحالة الشعورية للإمام الحسين عليه السلام بعد أن أصبح على يقين لما يعتري هؤلاء من تخاذل وتكاسل عن الجهاد ضد بني أُميّة، فها هو أصبح مُتَقَبِّل لأمر الموت ومُتهيأ نفسياً لبلوغ الشهادة على أكمل وجه، ولا شك في أن بلوغ الشهادة سيُمكِّنَه من الإلتقاء بأحبتهِ، فيصور ذلك الوله والشوق لرؤياهم ليس بألفاظ تقريرية مباشرة بل جعل المتلقي يُساهم في تصور ذلك الشعور من خلال إستذكار قصة يوسف وأخيه فقد بلغ غاية الشوق ووصل الى أعلى مراتب العاشقين وقد صوّر القرآن الكريم تلك القصة بأروع تصوير،

كذلك عَمَدَ الامام الحسين عليه السلام الى الاقتباس من الحديث النبوي الشريف لكن بطريقة مباشرة كما قوله عليه السلام:

"أَيُّها الناسُ إنَّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله قالَ: "مَنْ رَآى سُلْطاناً جَائِراً مُسْتَحلاً لحُرَم الله ناكثاً لعَهْد الله مُخَالفاً لسُنَّة رَسُول الله يَعْمَلُ في عباد الله بالإثْم وَالعُدْوَان، فَلَمْ يُغَير عَلَيه بِفِعْلٍ وَلا بِقَولٍ كانَ حَقّاً عَلى الله أنْ يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ"(٣٦).

إن الامام الحسين عليه السلام على دراية تامة بما يحمل قول الرسول محمد صلى الله عليه وآله من توجيهات لمحاربة السلطان الجائر، فلهذا النص دلالات مُسبّقة في نفوس الناس، لذا حاول أن ينقل ذلك الحديث نقلاً مباشراً، وأن يخلق شيئاً جديداً في نفوسهم من خلال هذا الاقتباس ففيه ثورة ضد القائد الظالم أمثال بني أمية، لاسيما وأن هذا الحديث قد أرسى أُسس اجتماعية خالدة تصلح لكل زمان ولكل مكان، منها: رفض الانقياد والانصياع للقائد الحاكم الجائر، كما إنَّ السكوت عن الباطل يُشكل مرضاً خطيراً يمزق المجتمع وينهب خيراته ويُقسمهُ على

طبقات اجتماعية متباينة لذا يجب مقاومة الظالم في القول حالة قُصر اليد عن مطاولتهِ لقوتهِ وبطشهِ، وكشف نكثه للحق ومخالفتهِ لحدود الله سبحانه وتعالى(٣٧).

أما ما يَخُصُّ الرافد الأدبي فالإمام الحسين عليه السلام لم يكُن بمنأى عن ذلك فهو ابن البيئة العربية وعلى دراية بما تُحدثُهُ الأمثال والأشعار المُضَمَّنة في نفس المتلقي العربي، إلا أنّ البحث سيُحيل دون أن يُعَرِّج على ذلك لكثرة الكتب المؤلفة فيه والأمثال المذكورة عنه.

أما ما يَخُصُّ اسلوب التقسيم فهو نوع من أنواع البديع التداولي يخضع لآليات تشحذ الذهن لإيجاد علاقات بين أجزاء الكلام على وفق قواعد منطقية، فمن خطبهِ عليه السلام التي وَرَدَ فيها هذا الاسلوب قوله عليه السلام:

"إنَّهُ قَدْ نَزَلَ مِنْ الأمْرِ مَا قَد تَرُونَ فَإنَّ الدُّنْيا قَدْ تَغَيّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ وَأدْبَرَ مَعْرُوفُها واسْتَمَرَّت [حذاء] فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلا صَبَابَةً كَصَبَابَةِ الإناء وَخَسيسِ عَيشٍ كَالمَرَعَى الوَبيل ألا تَرُونَ أنَّ الحَقَّ لا يُعْمَلُ بِه وَأنَّ البَاطِلَ لا يُتَناهَى عَنْهُ لَيَرْغَبَ المُؤمِنُ فِي لِقَاءِ اللهِ مُحِقّاً فَإنّي لا أَرى المَوْتَ إلا شَهَادَةً وَ[لا] الحَيَاةَ مَعَ الضالمِينَ إلا بَرَمَا"(٣٨).

لو تَمَعنا في هذا النص لوجدناه نصٌ نثري زاخر بالفنون البديعية فكل كلمة فيه ينبع منها فناً بكامله يتناسب مع ما يليه من تشكيلات بديعية، وأول تلك الفنون اعتماد الامام الحسين عليه السلام على اسلوب التقسيم إذ جاء التقسيم الذي حصر فيه أحوال الدنيا فلم يبق منها إلا (صبابة كصبابة الاناء) و(خسيس عيش كالمرعى الوبيل) ولا يُخفى على المتلقي ما يُوحي بهِ هذا التقسيم القائم على اسلوب الاستثناء من دلالات توحي بحالة التردي والخساسة التي وصلت الأمور إليها بفضل الحكام الأمويين، ثم يعمد الى توظيف اسلوب العكس في النص ذاته، تمركز ذلك في قوله (الحق لا يعمل به) و(الباطل لا يتناهى عنه).

كما إن القانون الصحيح لحياة هادئة وعادلة أن يعمل الانسان بالحق بكل مجريات الحياة ويتناهى عن عمل الباطل. لكن ما يحدث هو على العكس من ذلك تماماً، وهذا ما زاد من رغبة الامام الحسين عليه السلام في الرحيل عن هذه الدنيا التي أصبحت برماً ويطلب بدلاً عنها الشهادة التي يراها حياة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(٣٩).

والمخطط التالي يوضح ذلك:

وفي ختام هذا المبحث تجلى لنا جلياً أن الإمام الحسين عليه السلام على دراية تامة بما تحمله الصورة القرآنية من أدلة فيها قدرة على شحذ ذهن المتلقي وتأكيد المعنى وتقويته، فضلاً استخدامه لذلك الاسلوب بنوعيه مباشر وغير مباشر سواء أكان للنصوص القرآنية أم للأحاديث النبوية الشريفة، كما إن توظيف التقسيم بدا واضحاً وجلياً للعيان بأسلوب منطقي وطريقة مقنعة تُعبّر عن رجاحة صانعها ومنطقية التفكير. الأمر الذي زاد النصوص قوة وجمالاً فوق صدقها الموضوعي وجميل شكلها الفني.

النتائج:

١- ان توظيفات فن البديع في نثر الامام الحسين عليه السلام لا يقتصر على الوظيفة الجمالية بل تعدّى ذلك الى إنتاج دلالات إيحائية، الأمر الذي ساهم في تقوية المعنى ورفده.

٢- إعتمد الامام الحسين عليه السلام على توظيف إسلوب السجع في نصوصه النثرية الأمر الذي سما بها الى تحقيق شعرية النص النثري.

٣- إن الكثير من التوظيفات البديعية التي عمد إليها هي تُحاكي الحالة الشعورية التي مرّ بها لا سيما في إسلوبي الاقتباس والتقسيم.

٤- البراعة في توظيف تلك الفنون البديعية في نثره دون أن يشعر المتلقي بأنّها خليط من روافد قرآنية وأحاديث نبوية شريفة ونصوص أدبية وما فيها من تشكيلات بلاغية إرتقى بها الى مستوى الابداع.

٥- أغلب الفنون البديعية الواردة كان ورودها عفو الخاطر يستدعيه الحالة الشعورية، سيما إن بعض النصوص خالية من تلك الفنون في حالات عدم حاجة النصوص إليها، وهذا دليل على حُسن توظيف ذلك الفن في تلك النصوص.

Abstract

The Oratory of Imam Hussein (PBUH) characterized by the aestheticism of Imaging and the splendor of Expression. This stems from the objective honesty which represents the address of the Case the He sacrificed for and gets the martyrdom in the way of Allah. So the light sheds on those speeches is very important matter. Because the art of Badi is no longer limited on the verbal side but also responsible on the meaning outpourings, so through the research we noticed that most of the arts that employed by Imam Hussein (PBUH) in his speeches such as rhyme, alliteration and repetition were used in order to reinforce the musical side, who works on attraction the receiver, as well as the manner of opposition. It is splendid to mention the thing with its contrary. While the extraction, the implication and the division was spontaneously employed without affectation because when it exists the text will be disharmony.

هوامش البحث

(١) لسان العرب، ابن منظور: مادة (بدع)، ينظر: أساس البلاغة للزمخشري، مادة (بدع)، ص٣٥.

(٢) جواهر البلاغة، احمد الهاشمي، ٣٠٨.

(٣) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص٣٥٨.

(٤) حاشية الدسوقي، ج٣٩/٤.

(٥) علم اللغة، السعران، ٢٣٦.

(٦) مقتل الخوارزمي، ٣٧٥/١؛ بحار الانوار، ٤٥/٥.

(٧) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٩٣-١٩٦.

(٨) السجع المطرف أن يختلفا في الوزن ويتفقان في التقفية، ينظر: حاشية الدسوقي، ٢٤/٤.

(٩) ينظر: البلاغة الاسلوبية، محمد عبد المطلب، ٢٠٤.

(١٠) تاريخ الطبري، ج٤١٨/٥.

(١١) جواهر البلاغة، ص٣٤٣.

(١٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة (سرر) ومادة (ضرر).

(١٣) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ١١.

(١٤) مقتل الخوارزمي، ٣٥٧/١-٢٥٨.

(١٥) التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكة الى المدينة، هادي سعدون هنون، ١٤٢.
(١٦) الاحتجاج، ج٢/٢٣؛ اللهوف، ١٥٦.
(١٧) التكرار: دلالة اللفظ على المعنى مرددا: المثل السائر: ١٥٦.
(١٨) سورة المنافقين: آية ٨.
(١٩) الطبري: ٥/٤٠٣؛ الفتوح: ٥/١٤٤؛ مقتل الخوارزمي، ١/٣٣٥.
(٢٠) المقابلة: هو أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، بما يُقابل ذلك على الترتيب، والمُراد بالتوافق هو خلاف التقابل، ينظر: مواهب الفتاح، ج٢/٣٠.
(٢١) التقابل غير الحاد: وهذا النوع يُراد به التدرج في الألفاظ المتقابلة أي وجود ألفاظ وسط بين المتقابلين لقبولهما التفاوت في الصفة ويمكن استعمال الألفاظ الدالة على التفاوت مثل أكثر من، أقل من، ينظر: اساليب البديع في نهج البلاغة: ١١٢.
(٢٢) مقتل الخوارزمي، ١/٣٥٧-٣٥٨؛ أنساب الأشراف، ٣/١٨٨.
(٢٣) الحسين في الفكر المسيحي: أنطوان بارا: ١٠١.
(٢٤) تاريخ الطبري، ٥/٤٠.
(٢٥) الأدب وفنونه: ١٦٧.
(٢٦) مقتل الخوارزمي، ٢/٩.
(٢٧) ينظر: التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية، ٧٨-٧٩.
(٢٨) التداولية عند العلماء العرب: ٦.
(٢٩) الخيال الرمزي: ٨-٩.
(٣٠) أساليب البديع في نهج البلاغة: ١٤٨.
(٣١) سورة يونس: الآية ٨١.
(٣٢) تاريخ الطبري: ٥/٤٢٤.
(٣٣) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص٣٥٨.
(٣٤) ينظر: وظيفة الصورة الفنية: ٤٣٨.
(٣٥) نزهة الناظر وتنزيه الخاطر: ٥٧.
(٣٦) تاريخ الطبري: ٥/٤٠٣.
(٣٧) ينظر: التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية، ١٧٦.
(٣٨) تاريخ الطبري: ٥/٤٠٣-٤٠٤.
(٣٩) آل عمران: ١٦٩.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الاحتجاج: أبو منصور احمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت٥٠٢هـ)، تعليقات، محمد باقر الموسوي الخراساني، منشورات ذوي القربى، الظهور، قم، ايران، ط١، ١٤٢٦هـ.

٢- الادب وفنونه، محمد مندور، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، (د.ت).

٣- أساس البلاغة: تأليف الإمام الكبير جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى ٥٣٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٤- أسرار البلاغة: الشيخ الامام ابي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، قرأه وعلّق عليه أبو فهد، محمود محمد شاكر، شركة القدس، مطبعة المدني، المؤسسة السورية بمصر، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٥- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، مؤسسة الجامعية للدراسات القرآنية والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٤.

٦- أنساب الأشراف، احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (من أعلام القرن الثالث الهجري)، حققه وعلّق عليه: الشيخ محمد باقر المحمودي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٧- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٨- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٦، د.ت.

٩- البلاغة الاسلوبية، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، د.ت.

١٠- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكة الى المدينة، هادي سعدون هنون، العراق، النجف، ٢٠١١م.

١١- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م.

١٢- التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

١٣- حاشية الدسوقي على مختصر السعد: محمد بن احمد بن عرفة الدسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠هـ، تحقيق د. خليل إبراهيم خليل، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٤- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، احمد الهاشمي، اشراف، صدقي محمد جميل، مؤسسة الصادق، طهران، ط٢، ١٣٨٣هـ.

١٥- الحسين في الفكر المسيحي، أنطوان بارا، الصفاة، الكويت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٦- الخيال الرمزي، جيلبير دوران، ترجمة: علي المصري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
١٧- عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح: تأليف بهاء الدين بن حامد احمد بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفي سنة ٧٧٣هـ، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
١٨- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران، دار المعارف المصرية، الإسكندرية، ١٩٦٣م.
١٩- لسان العرب، للامام العلامة ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط، ٢٠٠٥.
٢٠- اللهوف (الملهوف) على قتلى الطفوف: رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت٦٦٤هـ)، دار الاسوة، قم، د.ت.
٢١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٢٢- مقتل الحسين عليه السلام، أبو المؤيد الموفق بن احمد أخطب خوارزم ت (٥٦٨هـ)، تحقيق الشيخ محمد السماوي، منشورات أنوار الهدى، قم، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥.
٢٣- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، أبو العباس، احمد بن محمد بن محمد ابن يعقوب المغربي، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٢٤- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: للعلامة الحسين بن محمد بن الحسن نصر الحلواني (من أعلام القرن الخامس الهجري)، مؤسسة الامام المهدي، قم، ١٤٠٨.
٢٥- وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، عبد السلام احمد الراغب، فصلت للدراسة والترجمة والنشر، حلب، ط١، ٢٠٠١م.

الأطاريح الجامعية:

١- أساليب البديع في نهج البلاغة، دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية، أطروحة مقدمة الى مجلس جامعة الكوفة، الطالب، خالد كاظم حميد الحميداوي، أشراف أ. د. مشكور كاظم العوادي، ١٤٢٢هـ/٢٠١١.